مدرسة الإسكندرية

الأقمصة الجلدية ولباس عدم الفساد

جورج عوض إبراهيم

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد السادس - ٢٠١٠

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٦

الأقمصة الجلدية ولباس عدم الفساد (١)

دكتور جورج عوض إبراهيم

الأقمصة الجلدية ولباس عدم الفساد (١)

οἱ «Δερμάτινοι χιτῶνες» καί τό Ἔνδυμα τῆς Ἀφθαρσίας

د/ جورج عوض إبراهيم
دكتوراه في العلوم اللاهوتية - جامعة أثينا
باحث بالمركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية
Georgeaouad@alexandriaschool.org

لِباس الله والعالم والإنسان

أ. لِباس الله

١. الله هو نور:

يعلن لنا التعليم الكتابي أن «الله نور» (١يو١: ٥)[١]. وللقديس غريغوريوس النزينزي قصيدة شعريّة رائعة عن النور، يقول فيها: "نحن نباركك، يا أبا الأنوار، المسيح كلمة الله، بهاء مجد الآب، نور من نور، ومنبع النور، الروح الناري، نسمة الابن كما هو نسمة الآب. أيها الثالوث الأقدس، النور غير المنقسم، أنت بدَّدت الظلمات، لكي تخلق عالمًا مضيئًا، منسقًا حسنًا، يحمل شبهك. أضأت الإنسان بالفهم والحكمة، وأنرته بختم صورتك. لكي بنورك نعاين النور (مز٣٦: ٩)، ويصير هو بكليته نورًا. أنت جعلت السماء تلمع ببريق أنوار لا حصر لها، ونسقتها نهارًا وليلاً، لكي تعمل على تقسيم الزمن من دورٍ إلي دورٍ بكل هدوء. فالليل يضع حدًّا للعمل للأجساد المتعبة، والنهار ينهضنا للأعمال التي تحبّها، فنتعلّم أن نهزم الظلمة، ونسرع نحو النهار الذي لن يعقُبه بعد ليل"[٢]. إنّ هذا يعني أن الله هو:

---

[١] يقول القديس كليمنضس السكندري عن الله، إنه النور الحسن الذي لا يُدني منه (انظر PG9,708)، وكذلك العلامة أوريجينوس الله "خالق الكل هو نور" (PG11,1400A).

[٢] غريغوريوس النزينزي، عظة٣٢: PG37, 511-512 عن شرح سفر التكوين سفر البدايات، أحد رهبان دير القديس أنبا مقار، دار مجلة مرقس، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص٥٩ــ٦٠.

أ. وجود منفتح وظاهر:

الشمس بطبيعتها هي مخلوق منفتح وظاهر. الشمس لا تخفي ذاتها أبدًا. يمكن بالطبع، المخلوقات الأخرى مثل الأرض والقمر والسُحب أن تغطيها أو تُخفي نورها (كسوف الشمس). لكن هذا لا يرجع إلى طبيعة ووجود الشمس ذاتها، لكن إلي طبيعة وحركة المخلوقات الأخرى. الشمس تظل غير متغيّرة وغير متحرّكة. هكذا الله أيضًا. هو منفتح وظاهر ولا يُخفي ذاته. إله الإعلان الحقيقي وغير المخلوق، ليس هو مثل آلهة الديانات المزيّفة، الذين يُغطّون بستائر ويُخفون في المغارات والكهوف المظلمة. إنّ موجودات أخرى، مثل الشيطان والإنسان، يمكن أن تسبب كسوف كُلي أو جزئي لله، من حياة البشر. يمكن أن يخفوا الله، بوجودهم المخلوق. لكن هذا سوف يحدث لفترة زمنيّة صغيرة وليست كبيرة، مثلما يحدث مع كسوف الشمس الكلي والجزئي، هم لا يستطيعون أن يخفوا، على الدوام، حضور الله الحي من حياة البشر والعالم. فالإنسان يغلق مصاريع شباك وجوده ويعيق دائمًا نور الله الذي يريد أن يشرق على حياته. كل تاريخ ما بعد السقوط ليس هو إلاّ محاولات الإنسان الدائمة للاختفاء من حضور الله المنير. الإنسان يختبئ (تك٣: ١٠) والله يبحث عنه لكي يجده. الله لا يختبئ، ولا يغيب ولا ينام. الإنسان، دائمًا، مختفٍ. حل المشكلة البشريّة سوف يعتمد على حركة الإنسان النهائيّة: إذا خرج نهائيًا من خباياه، من جُب موته سوف يظهر لنور ومحبّة الله.

ب. وجود كامل ومطلق:

النور هو الأوّل والأكمل من كل مخلوقات الله الماديّة. نفس الأمر أيضًا، نور الشمس هو أبيض وكامل. إنه مركّب من ألوان كثيرة، ألوان قوس قزح. الله هو نور لأن وجوده هو كامل ومطلق. يوجد في الله كل خواص الوجود الكامل والمطلق: الحكمة والقداسة والمحبّة والقوّة والحياة ... إلخ. الله هو "كنز الصالحات"، غنى الوجود الذي لا يُستنزف. الله يملك كل شيء وبدرجة مطلقة. إنه الوحيد الغني[٣]. الآب السماوي هو غني ولا يغيب عنه شيء.

[٣] انظر ٢كو٨: ٩؛ أف٢: ٤.

في بيت إلهنا الآب «يفضل الخبز»[٤]، كذلك أيضًا كل الخيرات الروحيّة والماديّة.

ج. وجود جميل وحَسُن:

نور الشمس هو مخلوق حسن، ويجعل كل المخلوقات جميلة وحسنة. بدون نور الشمس، كل المخلوقات والأكثر حُسنًا تُفقد وينطفئ جمالها. كل الطبيعة، تحت نور الشمس، تصير حسنه، مثل أعمال الفن، تحت نور الكشافات الضوئيّة تصير أكثر جمالاً وروعة. اللّه هو نور لأنه هو الوجود الحسن والجميل. اللّه ليس هو فقط الصلاح المطلق[٥]، لكن أيضًا هو الجمال المطلق، فكل ما هو حسن في العالم يرجع جماله إلى اللّه؛ مصدر النور. الناس الجميلة والأماكن الرائعة والأعمال الحسنه والفنون الجميلة هي انعكاسات لجمال اللّه المُطلق. الكنيسة الأرثوذكسيّة تُلهَم بالحري من جمال اللّه الذي لا يُنطق به لذلك كل إعلاناتها ونشاطها هي تعبيرات حسنه ورائعة. الكنيسة يُعبّر عنها دائمًا بكونها "فيلوكاليا φιλοκαλία" أي المُحِبة للجمال؛ «كُلُّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الأَنْوَارِ، الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ.» (يع١: ١٧). مازال اللّه هو النور لأنه ليس فقط مضاد للظلمة، وللشر، لكن أيضًا لأنه ينتصر على الظلمة. اللّه يُطفئ الشر ويحمي أخطاء مخلوقاته ويُعيد التجانس والنور في نطاق خليقته المصنوعة. الرسول يوحنا، إنجيلي النور الإلهي، في بداية إنجيله قال مرارًا: «وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ» (يو١: ٥). خاصية اللّه هذه لها أهميّة خاصة للخليقة المصنوعة. الشر، بالرغم من أنه غير موجود وليس له كيان لأن اللّه لم يخلقه، أخذ وجودًا وكيانًا لأن الموجودات العاقلة (البشر والشيطان) تعايشت معه وأعطت له كيانًا. وهذا جعل للشر كيان يمثّله حركة مضادة والتي تشرع في إرجاع الخليقة المصنوعة إلي ظلمة عدم الوجود، إلي حالة العدم.

---

[٤] انظر لو ١٥: ١٧.

[٥] انظر مت ١٩: ١٧.

سوف تنتصر قوة محبّة الله على هذه الحركة الظلاميّة. كل ما خلقه الله في النور سوف لا يُسمح له أن يرجع أيضًا إلي ظلمة العدم.

٢. النور كلِباس الله:

لدينا نصّين في الكتاب المُقدّس، واحد في العهد القديم وآخر في العهد الجديد، يعلنون أن وجود الله ليس فقط هو نور بل أنّ النور هو لباس الله: الله «اللاَّبِسُ النُّورَ كَثَوْبٍ، الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ كَشُقَّةٍ» (مز١٠٤: ٢) و«ساكن في نور لا يُدنى منه» (١تيمو٦: ١٦). أي الله محاط بنور غير مخلوق. الله يوجد ويحيا في نور غير مخلوق بمثابة رداء الله. تلاميذ المسيح كانوا جديرين بأن يروا هذه الإنارة "رداء" ابن الله، فأثناء التجلّي على جبل طابور ظهر أن رداء المسيح الحقيقي كان نور الألوهيّة الذي ليس فقط لمع بل صارت الملابس الطبيعية نور: «وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ، وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ، وَصَارَتْ ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ كَالنُّورِ». (مت١٧: ٢).

أ. النور غطاء وإعلان معًا:

الملبس يعمل كغطاء وكإعلان معًا. الملبس يُغطّي الجسد الإنساني، لكن في نفس الوقت أيضًا يُعلنه، يُلبس الفنان تمثاله، بستارة، من جانب واحد يغطّي الجسد العاري، ومن الجانب الآخر يُظهر خطوطه الراقية، بنفس الطريقة، نور الشمس هو مبهر. لا أحد يستطيع أن يرى "حدقة" الشمس. بالأكثر جدًا، قرص الشمس لا يمكن للعيون الضعيفة والمريضة أن تُحدِّق فيه. هذا يعني، أن نور الشمس يعمل كغطاء يسمح للنظرات الفاحصة.

طبيعة وجوهر الله يعمل كنور مبهر وقوي يجعل من غير الممكن الملاحظة والمعرفة، من جانب المخلوق. تلاميذ المسيح استحقّوا أن يروا ثياب ابن الله المنيرة. أثناء تجلّيه المُمجّد على جبل طابور، ظهر أن لباس المسيح الحقيقي هو نور الإلوهية والذي لم يلمع فقط بل تغير إلي نور وكذلك تغيرت ملابسه الطبيعيّة؛ «وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ، وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ، وَصَارَتْ ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ كَالنُّورِ». (مت١٧: ٢) الله، في طبيعته وجوهره، هو وجود لا يُدنى منه وبالتالي غير مُحدّد وغير موصوف. النور غير المخلوق يُغطّي الوجود الإلهي عن

أعين الإنسان المتواضعة. الإنسان الساقط لا يمكن أن يرى الله، لأن وجوده الفاسد والفاني لا يحتمل نور شخصه الإلهي غير المخلوق. وحادثة اختباء الأبويْن الأوليْن، بعد السقوط، هو تأكيد كتابي لهذه الحقيقة؛ «وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ» (تك٣: ٨). الجدير بالذكر، أنّ موسي دُعي ناظر الله θεόπτης لأنه تحدّث مع الله لمدّة أربعين يومًا وجهًا لوجه[٦]، والنتيجة أنّه صار وجه منيرًا وعاكسًا للنور. لكن عندما نزل من جبل سيناء، لم يستطع بني إسرائيل أن يُحدِّقوا في وجهه. لأجل هذا أيضًا غطّاه ببرقع[٧]. نفس الأمر حدث في تجلّي المسيح على جبل طابور حيث غطّى التلاميذ وجوههم لأنّهم لم يستطيعوا أن يُحدِّقوا في نور ألوهيّته.

ب. الله يُعلِن للإنسان:

الله يُحاط بعنصر شفاف؛ النور. هذا يعني أن النور الذي يحيط بالله هو شاهد وكارز للطهارة والقداسة المطلقة وأيضًا لبساطة الله. النور غير المخلوق يُظهِر الله. لا يوجد في نطاق الله شُبهات وشرور ومكائد ودسائس ومؤامرات .. في بيت الله لا توجد أماكن مظلمة وسجون وزنزانات. لا توجد حواجز ولا فواصل. الله لا يختبئ بل هو ظاهر لكل مخلوقاته خاصةً العاقلة؛ الملائكة والبشر. لا يمكن لإنسان أن يتجرّأ ويسكن في بيت من زجاج، كلنا نبني بيوتنا بمواد غير شفافة ومرتفعة وننشئ فواصل ونضع حواجز. الله فقط يسكن في بيتٍ كلّه منير. لأن الله ليس لديه شيء يخفيه. لا يهاب شيئًا. هذه الحقيقة قد أعلنها لنا المسيح، ابن الله بإعلانه؛ «رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ» (يو١٤: ٣٠). «مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟» (يو٨: ٤٦).

---

[٦] انظر خر٣٣: ١١.

[٧] انظر خر٣٤: ٢٧ــ٣٥.

ب. لِباس العالم

اللّه ليس هو فقط "نور" بل أيضًا "محبّة": «اللّه محبّة» (١يو٤: ٨). هذا يعني أن اللّه لا يوجد بمفرده، كنور، وكوجود مُطلق، لقد خلق كائنات أُخرى كساها بنور الوجود.

أ. خلق العالم كاستثمار لمحبّة اللّه:

ولادة طفل كتقدمة للوجود وللحياة في مخلوق آخر هو استثمار لمحبّة والدية. الخلق، كدعوة وخروج العالم من فوضى وظلام العدم، إنّه أول استثمار لمحبّة اللّه غير المحدودة. الخلق هو حركة محبّة اللّه. محبّة اللّه ليست هي نظريّة مجرّدة. اللّه يُظهرِ محبّته بأعمال معيّنة. قمّة حركة وعمل محبّة اللّه كان خلق موجودات أخرى. «آلهة الأمم» (مز٩٦: ٥)، خافوا من الكائنات الأخرى سواء كانت إلهيّة (كما في الأسطورة اليونانيّة) مثل تيتانيس οἱ τιτάνες أو بشريّة مثل بروميثيوس ὁ Προμηθεύς. في عبادة الأصنام توجد أيضًا كراهية وعداوة وصراعات بين الآلهة بعضها لبعض، وبين الآلهة والبشر، اللّه الحقيقي فقط لا يخاف من كائنات أخرى.

ب. النور المخلوق هو أول خليقة اللّه:

خليقة اللّه الثانية كان النور المخلوق «وَقَالَ اللّهُ: "لِيَكُنْ نُورٌ" فَكَانَ نُورٌ» (تك١: ٣). اللّه، النور غير المخلوق، خلق النور المخلوق. بالتالي، النور المخلوق ليس إلاّ رمزًا لنور اللّه غير المخلوق. يقول القديس ديونسيوس الأريوباغي: "الأنوار الماديّة هي صورة للنور غير المادّي"[٨]. والقديس غريغوريوس اللاّهوتي يُكمل هذا المفهوم، إذ يقول: "النور المخلوق هو رمز للّه، لنور الحكمة السماوي الفريد"[٩]. أيضًا الشمس كنور الأرض الفريد، نور كل نظامنا الكوكبي، إنه علامة ورمز لنور اللّه غير المخلوق.

الفنان يظهر من أعمالة. اللّه الخالق يظهر من خلال خلائقه. المخلوقات هي علامة ورمز لخالقهم «لأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ تُرَى أُمُورُهُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ

[8] PG 3,121.
[9] PG 36,609c.

السَّرْمَدِيَّةُ وَلاَهُوتُهُ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ» (رو١: ٢٠). النور المخلوق، خاصةً، يظهر ويعلن نور الألوهيّة غير المخلوق. النور المخلوق هو المُرشد المنير، لكي ننقاد إلي نور الله غير المخلوق. النور المخلوق هو نجم بيت لحم المنير. ماسكين إياه في يدينا "كمصباح"، نستطيع أن "نصل للمذود" مع المجوس.

الخليقة تعكس نور الله غير المخلوق؛ النجوم والمجرّات والكون يعكسون نور الله. إنها مرآة لله! هذا يعني، أن مخلوقات الله المخلوقة هي موجودات منيرة، مثل ذاك الذي هو نور. فالخليقة الرائعة لم تكن لمجرّد استخدام الإنسان بل هي قادرة أن ترفع عقل الإنسان إلي الخالق الكلّي الصلاح لكي يُدرَك بالمخلوقات قدرة الله السرمدية ولاهوته (رو١: ٢٠). ويعبر عن ذلك القديس باسيليوس قائلاً: "دعنا نمجد السيّد صانع كل الأشياء التي خلقها بكل مهارةٍ وحكمةٍ، ومن جمال الأشياء المنظورة دعنا نُكوِّن فكرة عن الذي هو أبرع جمالاً من بني البشر، ومن عظمته، تلك الأجسام المُدرَكة والملموسة أمامنا دعنا نتصوّر ذاك الذي هو غير محدود وعظيم ويفوق كل التصوُّر في ملء قوته. لأننا حتى ولو كُنّا جاهلين بكل الأشياء التي صنعها إلا ما يقع تحت ملاحظتنا فقط، فهو عجيب للغاية، حتى إن أكثر العقول ذكاءً يظهر غير قادر على الإلمام بأقلّ ما في العالم من مخلوقات سواء كان ذلك من حيث القدرة على الشرح الوافي لها، أم من حيث تقديم التسبيح اللائّق لخالقها الذي له كل المجد والكرامة والقوة إلى الأبد"[١٠]. الله لا يخلق أبدًا الظلمة، الشر ليس هو "خليقة الله". يقول القديس أثناسيوس الرسولي: "في البدء لم يكن الشرّ موجودًا. بل إنه ليس له وجود الآن في الذين قد تقدّسوا، كما أنه ليس له علاقة بطبيعتهم بأيّة حال من الأحوال. على أنّ الناس فيما بعد بدأوا يخترعونه"[١١] الديانات الثنائيّة تتحدّث عن إله منير للخير وإله مظلم للشر. الله، بالطبع خلق نظام التغيُّر بين النور والظلام على الأرض، خلال أربعة

---

[١٠] القديس باسيليوس، ستة أيام الخليقة١:١١.

[١١] القديس أثناسيوس الرسولي، رسالة إلى الوثنيين، نقلها إلي العربية حافظ داود (المتنيح القمص مرقس داود)، مكتبة المحبة، ص٢١.

وعشرين ساعة في اليوم[١٢]. لكن هذا التغيير يخدم الحياة «الْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ» (يو١: ٤).

ج. كساء العالم المخلوق بالنور:

ولادة طفل هو التعبير الأوّل لمحبّة والدية وتجسيد لهذا الحبّ. بعد ولادته تُسارِع الأم في تلبيس الطفل. بهذه الحركة، تُعبِّر عن محبّتها وعنايتها لطفلها. الملبس هو التعبير الثاني وتجسيد لمحبّة الأم. إنّه رمز لمحبّة الأم. إنّ كساء المخلوق بالنور هو الحركة الثانية للخالق، إنه أيضًا التعبير الثاني لمحبّة الله لأجل العالم. الله بدافع المحبّة، ليس فقط خلق العالم، لكن أيضًا لم يترك هذا العالم عاريًا. كساه بنور محبّته: الملبس الأول للعالم المخلوق كان نور محبة الله!

عندما صار ابن الله إنسانًا، علَّم أن تقديم «الثوب» (لو٣: ١١)، وكذلك أيضًا كساء العرايا (مت٢٥: ٣٦) هو تعبير للمحبّة الأصليّة. الثوب كان الملبس الذي يغطّي الجسد العاري. كان الثوب هو الذي يكسي الجسد. هكذا، الثوب كان يمثل الإنسان ذاته، ووجوده، وجوهره. كون أن الله ألبس العالم بثوبه الذي هو النور، يعني أن الله أحاط مخلوقاته بمحبّته غير المحدودة.

د. النور غير المخلوق ينتشر ويُظهِر أعمال الله:

الله ليس فقط خلق العالم بل كساه بالنور. هذا يعني أيضًا، أن الله لم يُخف أعماله تحت المكيال بل وضعها أمام مصباح النور غير المخلوق لكي تراها كل مخلوقاته وخاصةً الملائكة والبشر. الله هو الأول الذي أضاء نور أعماله أمام البشر لكي يرى البشر أعماله الحسنه ليمجّدوا أباهم السماوي الذي هو في السماء. هذا يعني، مثلما الله الذي لم يُخف ذاته، هكذا لا ينبغي أن يختفي أي أحد من أعماله. كل أعمال الله هي «معمولة» (يو٣: ٢١) في النور. المسيح كان بالحري واضحًا في هذا الموضوع إذ أكّد على أن أعماله كانت مُعلنة وظاهرة وأنه لم يفعل شيئًا في الظلمة؛ «أَجَابَهُ يَسُوعُ: 'أَنَا كَلَّمْتُ

[١٢] انظر تك١: ٤ــ٥.

الْعَالَمَ علاَنِيَةً. أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ دَائِماً. وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ.» (يو١٨: ٢٠). على النقيض، كل من خصومه ويهوذا الإسخريوطي تحرّكوا في الظلمة وفي اللّيل، لأنّ «لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً» (يو٣: ١٩).

ج ـ ملبس الإنسان الأوَّل

١. خلق الإنسان واكتساؤه بالنور:

أ ـ خلق الإنسان:

اللّه، بعدما خلق العالم الروحي؛ الملائكة، والعالم المادي؛ الكون، مضى أيضًا في خلق الإنسان. خلق اللّه، الإنسان، من العدم، كوجود جديد. محبّة اللّه استُثْمرَت في موجودات جديدة ومخلوقة وفريدة. كست محبّة اللّه الكائنات الجديدة بـ "أقمصة" الوجود. أقمصة وجود البشر هي مختلفة عن "أقمصة" وجود الملائكة. أقمصة البشر ذات طبيعة مزدوجة فأقمصة الرجل تختلف عن أقمصة المرأة. النصّ الكتابي يوضّح بأنّ: «ذَكَراً وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ» (تك١: ٢٧).

خلق هذا المخلوق العظيم، "ملك الخليقة" كما يدعوه القديس غريغوريوس اللاهوتي[١٣] و"الكائن المتوسِّط بين العالم المنظور (الطبيعي) والعالم غير المنظور (الذهني والملائكي)". كان استثمارًا جديدًا لمحبّة الثالوث القدّوس.

ب ـ اكتساء الإنسان بنور نعمة الخلق "بحسب الصورة" (النعمة الإلهيّة):

بحسب نص سفر التكوين خُلِقَ الإنسان «عَلَى صُورَتِهِ» (تك١: ٢٧). هذا التعبير الكتابي يشير إلى حقيقة أنّ اللّه قصد أن يجعل من الإنسان قمّة خليقته، ملكًا للخليقة ونائبًا عنه (مدبِّرًا) على الأرض. لقد أنعم عليه بخواص، موجودة في الإلوهية، بالأخص الوظيفة الذهنيّة، الفكر، الحريّة

[13] PG36,612

والسيادة ولكن بدرجة نسبيّة[١٤]. هذه الخواص جعلت الإنسان "صورة اللّه" الحقيقيّة وجعلته يُضيء ويشعّ كنور في العالم المخلوق. ويؤكّد هذا الأمر القديس أثناسيوس في كتابة تجسُّد الكلمة، قائلاً: "اللّه صالح بل هو بالأحرى مصدر الصلاح .. ولذلك خلق كل الأشياء من العدم بكلمته، يسوع المسيح ربنا، وبنوع خاص تحنّن على جنس البشر. ولأنّه رأي عدم قدرة الإنسان أن يبقى دائمًا على الحالة التي خُلق فيها، أعطاه نعمة إضافيّة، فلم يكتف بخلق البشر مثل باقي الكائنات غير العاقلة على الأرض، بل خلقهم على صورته وأعطاهم شركة في قوّة كلمته حتى يستطيعوا بطريقةٍ ما، ولهم بعضٌ من ظلّ (الكلمة) وقد صاروا عقلاء، أن يبقوا في سعادة ويحيوا الحياة الحقيقيّة، حياة القديسين في الفردوس"[١٥].

أي، كما حدث مع النور المادي؛ الكون الكبير، هكذا أيضًا مع العالم المادّي والروحي؛ العالم الصغير: الإنسان. فاللّه مباشرةً بعد خلقه، كسى الإنسان أيضًا بنور نعمته الإلهيّة: "نوع من النعمة أنعم بها عليهم كلباس، أعطاهم الإحساس بأنهم موجودون في تجانس وانسجام مع الوسط الإلهي المحيط"[١٦]. الكلام هنا عن عطيّة الروح القدس، عن مواهبه المتنوعة والفائقة التي منحها اللّه للإنسان. النصّ الكتابي يقول بكل وضوح: «وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ تُرَاباً مِنَ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً» (تك٢: ٧). هذه النعمة وعطيّة الروح القدس كانت اللّباس المنير الأوّل والذي به كسى اللّه الإنسان. النعمة الإلهيّة كانت اللباس الأرجواني الملوكي الذي كسى به اللّه ملك الخليقة. العالم المادي كان مكسوًّا بالنور المخلوق. الإنسان، ملك العالم المخلوق كان مكسوًّا بنور مواهب الروح القدس غير المخلوق. الحُلّة ذات النسيج الإلهي للنعمة الإلهيّة جعلت الإنسان يلمع ويشعّ، مثل تمثال حديث

---

[14] Π. φούγια, Ἡ περί τοῦ ἀνθρωπίνου σὠματος διδασκαλία, περιοδ. φάρος Ἀλεξανδρείας, τ. 1978 111, σελ. 151.

[١٥] القديس أثناسيوس الرسولي، تجسد الكلمة، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، طبعة ثانية ــ أبريل٢٠٠٣، فصل٣:٣، ص٨.

[١٦] قاموس اللاهوت الكتابي عمود ٣٦٤، باللغة اليونانية.

الصُنع، كما يقول القديس يوحنّا الذهبي الفم[١٧]. وكما أن النور المخلوق كان شبيهًا وصورةً للنور الإلهي غير المخلوق، هكذا الإنسان، مكسوًّا بنور النعمة الإلهيّة غير المخلوق، كان حقًّا صورة ومثال الله. بكلام آخر، الإنسان كان يعكس نور الثالوث غير المخلوق، بكونه صورة ومرآة الله!! بهذا المفهوم، آدم كان يعكس «مجد الله» (١كو١١: ٧)، أي كان يعكس نور وعظمة الألوهيّة. ويحدّثنا القديس أثناسيوس في رسالته إلي الوثنيين بالحالة التي كان عليها آدم قبل السقوط، قائلاً: "كان يعيش حياة الشركة مع القديسين في تأمُّل الحقائق المعقولة التي في ذلك المكان، والذي يسمّيه موسى النبي 'الفردوس'، وكانت النفس بالحق كافية أن ترى الله الذي ينعكس فيها، كمرآة، كما قال الرب نفسه «طوبي لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»."[١٨].

٢. عُري الإنسان الأوَّل:

أ. طبيعة الجسد الأوَّل:

يخبرنا نصّ التكوين بأنّ الأبويْن الأوليْن؛ «وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ» (تك٢: ٢٥).

هذا النصّ الإعلاني يشير إلي طبيعة جسد الإنسان الأوَّل. إعلان الكتاب بأنّ الاثنين البشرييْن الأوليْن كانا "عريانيْن" يعني أنّ جسد الأبويْن الأوليْن، من جهة الصُنع، لديه كل الخطوط والظلال النفسيّة والجسدية التي تكوِّن أجساد كل البشر. هذه الحقيقة يؤكّدها النصّ الكتابي ذاته، كالتالي:

أولاً، يذكر النصّ أن الله خلق حواء، آخذًا التكوين مادي، الضلع، من آدم؛ «فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى

---

[17] PG51,129.

[١٨] القديس أثناسيوس الرسولي، الرسالة إلي الوثنيين PG 25:5 مأخوذة عن د. وهيب قزمان بولس، النعمة عند القديس أثناسيوس بطريرك الإسكندرية العشرين، ترجمة د. جرجس كامل، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الثانية٢٠١٠، ص٣٦.

آدَمَ.» (تك٢: ٢١ ـ ٢٢). في هذه الأعداد صار ذِكر للأعضاء وتشريح جسد الإنسان الأول[١٩].

ثانيًا، عندما أحضر الله لآدم كل الحيوانات التي خلقها قبله، تحقق آدم من أن لا أحد من هذه المخلوقات نظيره؛ «وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ.» (تك٢: ١٩ـ٢٠). حقيقة أن آدم أعطى أسماءً لكل الحيوانات، هذا يُظهر أنه يملك موهبة الحكمة ويعرف تمامًا طبيعة وهدف كل واحد من المخلوقات.

ثالثًا، عندما رأى آدم، لأوّل مرّة، حواء، تحقّق بأنها مخلوق جديد لله مقارنةً بالحيوانات التي قد رآها مُسبقًا، كانت تُشبهه تمامًا لأنها جاءت من جسده ومن عظامه؛ «هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي» (تك٢: ٣٣). في هذا العدد يصير ذِكر لتشابه الصُنع الجسدي للجنسيْن البشرييْن، الرجل والمرأة.

رابعًا، الإشارة النبويّة لآدم على الاتّحاد الزيجي المستقبلي وعلاقته بحواء؛ «لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَداً وَاحِداً.» (تك٢: ٢٤). هذا العدد يشهد، بأنّ أجساد الأبويْن الأوليْن حملت بالفعل علامات الجنس التشريحيّة وأنّ اختلاف الجنس كان يهدف إلى الاتّحاد الزيجي والعلاقة الجنسيّة للرجل والمرأة.

ب. طبيعة عُري الإنسان الأوَّل:

إعلان الكتاب، بأنّ آدم وحواء «كانا كلاهما عريانيْن» يعني أن الأبويْن الأوليْن لم يستخدما أي ملبس مصنوع باليد. تكملة العبارة تُعْلِن بأنّه بالرغم من عريهما الجسدي إلاّ أنهما «لا يخجلان»، هذا يعني أن كلاً من العلامات التشريحيّة للجنس وكذلك الوظائف النفسيّة والجسديّة المتماثلة بينهما لم

[١٩] انظر كليمنضس الإسكندري: PG8,1360B .

تُنشِئ لهما أيّة مشكلة. وهذا أيضًا يعني أن عُري جسد الأبويْن الأوليْن كان حالة غير ملحوظة وغير مُدركة. غير ملحوظة، لأنها لم تُزعج وظيفة جسديهما المتناغمة، وغير مُدركة لأنها لم تُنشِئ أي مشكلة أخلاقيّة في ضميرهما. كان الأبوان الأولان، كما يقول القديس يوحنّا الذهبي الفم: "يسكنان على الأرض، مثل الملائكة في السماء، وبينما كانا بالأجساد الماديّة، إلا أنهما لم يتثقّلا بالشهوات الجسديّة، لأنهما ليسا في حاجة حتى للمأوى ولا لأي شيء آخر من هذا القبيل"[٢٠].

على الجانب الآخر، لم يكن لدى الأبويْن الأوليْن إحساس ووعي بعُري الجسد، من جرّاء غياب اللُّباس المصنوع باليّد، لأنهما جوهريًّا لم يكونا عريانيْن لكن مكسويْن بُحلّة المواهب الإلهيّة المنسوجة بالنسيج الإلهي، كما قلنا. ويؤكّد القديس يوحنّا الذهبي الفم هذا الأمر، قائلاً: "لم يعرفا أنهما عريانيْن طالما أنّ مجد الله غير الموصوف أحاطهما مزيّنًا إياهما بملبس مادي حسن"[٢١].

إذن مفاهيم جسد الإنسان الأوَّل هي:

أولاً: جسد الإنسان الأوَّل كان رقيقًا وشفّافًا. بهذا المفهوم، جسد الأبويْن الأوليْن كان يعمل مثل غطاء شفّاف. من جهةٍ، لا يعيق البشر عن النظر إلى الله إذ يقيمون شركة معه، ومن جهةٍ أخرى، كان يُسمَح لنور الله أن يُنير كل طبيعة البشر النفسيّة والجسديّة. وبكلام آخر، الجسد الأوَّل لم يمنع العلاقة المباشرة والقويّة والشركة بين الإنسان والله. وقد سجّل هذا الأمر بكل وضوح البروفيسور بانايوتس نيلاس، قائلاً: "لو أدركنا العُري كشفافيّة، نستطيع أن نقول كيف كان جسد آدم بسيطًا جدًّا لدرجة أنه كان حقًّا شفافًا ... نفس الإنسان كانت منفتحة على القوات الملائكيّة والله،

[20] Ἅπαντα τῶν Αγιῶν πατέρον ΙΕ,121Β.
[21] Ibid ΙΣΤ`, 24 Α.

لم تكن متمرِّدة، بل كانت تصنع شركة بكل سلاسة مع العالم الروحي الملائكي، ومع روح الله"[٢٢].

ثانيًا: الجسد الأوَّل كان مصقولاً لامعًا مثل المرآة. كذلك، الإنسان كان يوجد في تواصل مباشر وشركة مع الله "وجهًا لوجه"، جسده اللاّمع كان يعكس نور مجد الله، مثل المرآة. هكذا يشرح أيضًا كيف أن نور الله غير المخلوق كان يعمل كلباس للإنسان الأوَّل وكيف أن آدم، بحسب بولس كان مكتسيًا بـ «مجد الله» كما قلنا.

ج. ملامح الحالة الفردوسيّة

أولاً. الملمح التربوي:

حالة الإنسان الأوَّل ترتبط مباشرةً بمعيشة الأبويْن الأوليْن في الفردوس (تك٢: ١٥). «الفردوس» الذي وُضِع فيه الأبوين الأولين وهما «عريانين»، كان مكانًا وزمانًا خاصًّا له أهميّة في حياتهما ونموّهما فيما بعد. خاصةً أن الفردوس كان فترة تربويّة طويلة المدى وفترة اختبار لحريّة إرادتهما. هدف هذه التربية هي أن يتمكّن الإنسان من اختيار - بنجاح - طريقة حياته، أي طريقة حياته تجاه التغيُّر الحسن لطبيعته، تجاه "مثال الله".

ثانيًا ملمح الكمال النسبي:

كل المخلوقات غير العاقلة خلقها الله في حالة الكمال. طبيعتها لها شكل وهدف مُحدَّد. الشكل والهدف وتعيينهما السابق هو من البداية أمور مُسلّم بها. بكلامٍ آخر، أعطى الله المخلوقات غير العاقلة هبة الوجود ولكن دون موهبة النطق (العقل) والسيادة (بحسب الصورة). المخلوقات غير العاقلة خُلقَت في شكلها التّام والنهائي ولها هدف وتعيين مُسبق أن يثمروا وهم في نفس الحالة؛ «وَكُلَّ نَفْسٍ حَيَّةٍ تَدِبُّ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا» (تك١: ٢١). الإنسان فقط خُلِق "بحسب صورة الله ومثاله"، أي كوجود في تطوُّر تجاه

[22] Π. Νέλλα, Ζῶον θεούμενον, ἐκδ. Εποπτεία 1979, σελ.56.

حالة اكتماله وكماله. بهذا المفهوم، "العُري" للجسد الأوَّل يرمز إلى الكمال النسبي للطبيعة والوجود البشري بالنسبة للإنسان. الكمال، "لباس" وجود الإنسان، ليس أمرًا مُعطى لكن حالة يجب أن يساهم الإنسان ذاته فيها باستخدام صحيح لموهبة الحريّة. الله لم يفرض على الإنسان أيُّ "لباس" بل أعطاه كل المؤن الضروريّة (المواهب)، حتى بالمعونة الفوقيّة يكتسب، كمخلوقٍ حُر، حالة كماله واكتماله. بالتالي، الشكل الكامل الذي سوف يأخذه الإنسان، هو مطلب سوف يعتمد على الاختيار الحرّ ومساهمة الإنسان. القديس إيرينيوس وكذلك القديس ثيوفيلوس الأنطاكي يقولان بأنّ آدم خُلِق في حالة طفوليّة[٢٣].

ثالثًا ملمح الخصوصيّة:

تمثّلت في ارتدائه حُلّة المواهب الإلهيّة المنسوجة بالنسيج الإلهي، مثل ثوب أرجواني ملوكي. هكذا، الملبس (اللّباس) المؤقّت وغير المصنوع بيدٍ، كان نموذجًا يُظهِر الشكل المحدَّد الذي سوف يأخذه الإنسان؛ أي لباس وجوده النهائي. هذا يعني، أنّ لباس الإنسان النهائي، من جهةٍ، سيصبح مُنتجًا إلهيًّا، ومن جهةٍ أخرى، سوف يتجاوب مع مكانة الإنسان النوعيّة. من الجانب الآخر، كان سيوجِد ألبسة متنوّعة عظيمة، كمجموعة ورود متنوعة، وشعاعًا وبهاءً متنوِّعًا بين البشر، قياسًا بمكانة كل واحد النوعيّة.

يُتْبَعْ

[٢٣] انظر إيرينيوس PG7,1105 ، وثيوفيلوس الأنطاكي PG 6, 1092A .